الفصل الرابع

المساعدات والامة والسياسة

المنظمات غير الحكومية الاسلامية الدولية في تشاد

مايكا كاج

مقدمة

ظلت المنظمات غير الحكومية الإسلامية الدولية تعمل في أجزاء عديدة من أفريقيا، منذ الثمانينيات من القرن الماضي؛ خاصة بعد التسعينيات، حين اتسعت أنشطتها في كل القارة. وتستطيع هذه المنظمات، بصفتها الدولية، التمـــدد عبـــر الحدود الوطنية، وأن تُمثل بصفتها الإسلامية أحد مراكز القوى المعتبرة في عالم اليوم. وبالإضافة إلى ذلك، فإن لهذه المنظمات أهمية محلية؛ لأنها تحاول تحسين حياة الناس المادية والروحية من خلال المساعدات الصحية والغذائية والتعليمية، كما تُرشد إلى قواعد السلوك القويم وإلى الإحساس بالانتماء *"للأمة"* ؛ أي إجماع المسلمين في العالم. ونسبة لهذه الخصائص والدعم الدولي والنـــشاط المحلـــي، تكتسب هذه المنظمات أحياناً كثيرة دورًا سياسيًّا على النطاق المحلي.

ونظراً لما ذكر، فمن المدهش أن دور المنظمات غير الحكومية الإســـلامية الدولية لم يحظ إلا باهتمام أكاديمي محـــدود. وركـــزت الدراســـات الخاصـــة بالتدخلات الدولية في أفريقيا، بصفة رئيسة، على الأشـــكال الغربيـــة للتـــدخل،

وأغفلت النفوذ الإسلامي الدولي في أفريقيا جنوب الصحراء (انظر مثلاً كالاهي وكازيمير ولاثام ٢٠٠١). كذلك أهمل الباحثون المختصون بالإسلام في أفريقيا هذه الظاهرة، وليس من الواضح إن كان ذلك بسبب تركيزهم على دراسة الأشكال والممارسات الإسلامية المحلية، مقارنة بما يسمونه بالتقاليد الاسلامية "الأصيلة"؛ مما صرفهم عن دراسة التأثير الخارجي القادم من البلدان العربية، أم أن هذه المنظمات تعتبر نابعة أكثر من مفاهيم غربية أو اقتصادية، وليست ذات صلة بدراسة الإسلام.. غير أن هناك ما يُشير إلى أن الوضع آخذ في التحسن؛ فقد صدرت دراستان مثيرتان للاهتمام عن المنظمات غير الحكومية الإسلامية، هي *"الجهاد الإنساني"* لعبد الرحمن غندور (٢٠٠٢)، و *"الهلال الخير"* لجوناثان بنثال وجيروم بييون- جوردان (٢٠٠٣).

وعلى الرغم من أن الدراستين تختلفان في الأسلوب والتناول، فإن حججهما تتشابه إلى حد كبير، إذ تؤكد كلتا الدراستين أن المنظمات غير الحكومية الإسلامية، منذ نشأتها في نهاية السبعينيات من القرن الماضي وبداية الثمانينيات، استندت على فهم للتضامن الإسلامي، يتكوّن من ثلاثة عوامل: *الإغاثة، بمعنى تخفيف آلام البشر، والدعوة للدين الإسلامى، والجهاد* (بمعنى الدعم المسلح لقضايا المسلمين). وتشير الدراستان إلى أنه في ظروف مختلفة - كما في أفغانستان والبوسنة - نجد أن العوامل الثلاثة متوافرة في أنشطة المنظمات غير الحكومية الإسلامية، كما تشير أيضًا إلى أنه بمرور الزمن، تطورت هذه المنظمات نحو "الحرفية" (بنثال وبييون - جواردن ٢٠٠٣)، وتطور بعضها أكثر نحو العمل الإنساني، بينما نحا البعض الآخر نحو النشاط السياسي (غندور ٢٠٠٢، وانظر أيضًا صالح ٢٠٠٤). ومع أن هذين الكتابين يحتويان تفهمًا عميقًا لنشأة وأفكار واستراتيجيات العمل للمنظمات غير الحكومية الإسلامية عمومًا، انصبّ تركيزهما على الشرق الأوسط، وبؤر النزاع المعروفة؛ حيث تدور الحروب بين المسلمين وغير المسلمين، مثل: أفغانستان والبوسنة، والصومال في أفريقيا.

ولسوء الطالع، لم تحظ بقية أفريقيا إلا بنظرة عابرة، وهذا أمر يؤسف له لأن أفريقيا - منذ بداية عام ١٩٨٤ - سُميّت "دارالإسلام" بواسطة رابطة العالم

الإسلامي، أثناء اجتماعها السنوي (المعهد البابوي للدراسات العربية).[١] وقد جاءت أنشطة المنظمات غير الحكومية الإسلامية؛ محاولة لتحقيق هذا المسمّى، أساسًا من خلال *الإغاثة والدعوة*، ولم يحظ الدعم المسلح بالأهمية نفسها؛ لأن الجوانب السياسية وأثر أنشطة هذه المنظمات جاءت في شكل موارب غير مباشر.

وقد كان هذا السياق الأخير هو المجال، الذي تناولت فيه التقارير الصحفية والمجادلات العامة المنظمات غير الحكومية الإسلامية الدولية. وفي اللغة الجديدة، التي أفرزتها الحرب على الأرهاب، صُورت هذه المنظمات على أساس أنها تجسيد للشر، وتمثّله في "الآخر"الأصولي، وحين ينصب الاهتمام على عملها كمنظمات إغاثة غير حكومية، تُتهم بأنها تقليد محض للمنظمات غير الحكومية الغربية – وحتى ذلك تفعله بدوافع غير حميدة. وتعارض البيانات الواردة في هذا الفصل هذه الصور النمطية، وسأحاول أن أبين أنه من التبسيط المخل للحقيقة اعتبار المنظمات غير الحكومية الإسلامية المتحرض الرئيسي للإسلام الأصولي، في تشاد وفي غيرها من البلدان الأفريقية. كذلك، لا يمكن قبول صورتها كمنظمات أصولية العقيدة، يصعب التعامل معها وهي صورة تتناقض مع طريقة عملها على الأرض. وأخيرًا سأوضح، أن أخذ مفهوم الأعمال الخيرية في الإسلام مأخذ الجد، لا يمكن تصويره كمجرد تقليد للمنظمات غير الحكومية الغربية.

تشاد: بلد فقير على مفترق طرق مناطق النفوذ العربية والغربية

يبلغ متوسط العمر المتوقع في تشاد نحو خمسة وأربعين سنة، وتبلغ نسبة الأمية ٤٥,٨ بالمائة، كما يبلغ نصيب الفرد من الناتج الإجمالي الرسمي ١,٠٠٢ دولارًا أمريكيًّا، مما يجعل تشاد البلد الحادي عشر في قائمة أقل البلدان صلاحية للعيش (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ٢٠٠٤). وقد تزامنت الحرب الأهلية الشرسة التي نكبت البلاد في السبعينيات والثمانينيات، من القرن الماضي، مع

موجات الجفاف المتعاقبة، ومازال أسلوب إدارة موارد الدولة العشائري يسهم في عدم الاستقرار السياسي، بينما لازالت الهشاشة البيئية تهدد بقاء كثيرين من سكان تشاد، يضاف إلى ذلك تدفقات اللاجئين من أفريقيا الوسطى والسودان، التي تضع على البلاد عبئًا إضافيًّا. وقد كان لبداية إنتاج البترول بالقرب من دوبا، في جنوب تشاد، بواسطة مجموعة شركات أمريكية وماليزية بإشراف البنك الدولي، أثر واضح في رفع سقف التوقعات والمطالب لدى الشعب التشادي، كما زادت من حدة النزاع على السيطرة على عائدات البترول (بنافلا ٢٠٠٠؛ وجوير ٢٠٠٢؛ وإليس ٢٠٠٣). وقد أصبحت تشاد جزءًا مهمًّا من حرب الولايات المتحدة "على الإرهاب"؛ خاصة بعد مبادرة "كل السهل" الأمريكية، وهي برنامج لقيادة القوات الأمريكية في أوروبا، يهدف إلى تدريب بلدان السهل الأفريقي وتزويدها بالمعدات في حربها، التي بدأت عام ٢٠٠٣ ضد العناصر المرتبطة بالقاعدة، وتشاد أحد أربعة بلدان يُركز عليها هذا البرنامج، بجانب: مالي والنيجر وموريتانيا (إليس ٢٠٠٤).

ظلت تشاد لأمد طويل منطقة عبور بين المناطق المسلمة والمناطق "الوثنية" والمسيحية، فقد تمت أسلمة الشمال تدريجيًّا، خلال القرون السبعة الماضية عن طرق متعددة، منها: التجارة العابرة للحدود، والهجرات العربية من الشرق منذ القرن الرابع عشر، في حين دخل المبشرون المسيحيون إلى تشاد، ثم أفريقيا الوسطى والكاميرون، في ثلاثينيات القرن الماضي.

وفي التاريخ القريب، أصبح للدين دور مهم في الصراع حول السلطة، من جانب العشائر الشمالية والجنوبية، على حد سواء. وعند الاستقلال في عام ١٩٦٠، أصبح أحد الجنوبيين أول رئيس للجمهورية، واحتل الجنوبيون معظم الوظائف العليا في الدولة، وتلقى هؤلاء تعليمهم في المدارس الفرنسية، التي قاطعتها أغلبية المسلمين. وقد ساعد على هذه الهيمنة الجنوبية أن فرنسا ركزت على تنمية الجنوب *(تشاد المُفيدة)*. وقد أدى هذا الوضع، والموقف السلبي العلني للرئيس وأعوانه إلى زيادة التوتر في العلاقة بين المسلمين والجماعات الحاكمة. وبعد فترة طويلة من حرب العصابات والحرب الأهلية، استطاع الشماليون انتزاع السلطة في الثمانينيات (رغم أنهم لم يكونوا جبهة واحدة متماسكة). وقد

أحس الجنوبيون تحت رئاسة حسين هبري، أول رئيس مسلم، أن الشماليين احتلوا مناطقهم تدريجيًا؛ إذ لم يقتصر الأمر على تعيين إداريين شماليين لهم، بل جاءت أعداد كبيرة من التجار والرعاة المسلمين، هربًا من موجات الجفاف في الشمال. وقد أصبح التوتر بين رعاة الابقار الشماليين والمزارعين الجنوبيين المتحدثين (بالسارا) من أخطر المشكلات (أرديتي ٢٠٠٣) التي يعمقها الدين في الجنوب. غير أن الوضع لم يكن جامداً، ففي مدينة جنوبية مثل "سار" أصبح التجار المسلمون الناجحون قدوة يحتذيها شباب قبيلة "السارا"، وقد ينتهي الامر باعتناقهم الإسلام. ورغم غياب البيانات الموثقة، يميل معظم الكتاب إلى أن الإسلام في صعود مستمر في جنوب تشاد (ماجنانت ١٩٩٢، وماجرين ٢٠٠١).

سقط نظام هبري في عام ١٩٩٠؛ لأن فرنسا (والتي لها نفوذ اقتصادي وسياسي وعسكري كبير في تشاد حتى الآن) قررت أن تسحب دعمها له، وخلفه في السلطة إدريس دبي، أحد معاونيه السابقين. ومع أن التحول الديمقراطي كان قد بدأ في تشاد، فإن المجموعة التي استولت على السلطة سخرت موارد الدولة لصالحها، وبالتالي تواصل النزاع بين الشمال المسلم والجنوب المسيحي. وقد هيمن هذا الخلاف الثنائي بين الإسلام / الشمال والمسيحية/ الجنوب على أي رؤية أخرى للتفاعلات الدينية والاجتماعية والسياسية؛ مما يجعل من العسير (ومن غير المرغوب فيه سياسيًا أيضًا) رؤية أي تنوع أو تباين، داخل هذين "المعسكرين". كما أثار استغلال حقول النفط في الجنوب، الذي بدأ في عام ٢٠٠٤، النعرات الانفصالية وسط الجنوبيين، وإن كان قد زاد في الوقت نفسه من إصرار المسيطرين على السلطة على كبح جماح هذه النعرات، ومن ثمّ زيادة القمع والعنف.

ورغم ان الاحتياطات التى يتوقع وجودها من النفط اجتذبت اهتمام العالم الغربي، إلا أن تشاد كثفت روابطها بالبلدان العربية، منذ الثمانينيات من القرن الماضي، وهذا التوجه الجديد نحو العالم العربي له وجهان: اقتصادي، وديني/ثقافي"؛ إذ ازدادت واردات تشاد من دول الخليج، بينما زادت استثمارات الدول العربية في سوق العقارات والمنشآت العامة والصناعات (بنافلا ٢٠٠٠). ويعتبر السودان لاعبًا قديمًا على الساحة التشادية، غير أن نفوذه في تشاد يستند إلى تحالفه مع إدريس دبّي (الذي وصل إلى السلطة بمساعدة السودان).

شَرَك (فخ) المساعدة (المعونة) والأمة

يوضح الجدول التالي صورة عامة للمنظمات غير الحكومية الإسلامية الدولية، التي تعمل في تشاد في عام ٢٠٠٤، وعددها إحدى عشرة منظمة من بين إثنتين وأربعين منظمة، تعمل في تشاد حاليًا[٢]، بينها واحدة ليبية، وثلاث منظمات سودانية وواحدة كويتية، وست منظمات سعودية.

المنظمة	بلد المنشأ	سنة التأسيس	مجال العمل الرئيسي
الدعوة الإسلامية	السودان	1985	البنية التحتية، مساعدة الأيتام، العون الإنساني
الوكالة الإسلامية الأفريقية للإغاثة	السودان	1985	المساعدات الطارئة، وحفر الآبار، ومساعدة الأيتام
هيئة مسلمي أفريقيا	الكويت	1985	التعليم، وبناء المساجد، مساعدةالأيتام
المنظمة الإسلامية الدولية للإغاثة	السعودية	1986	بناء المساجد، التعليم، مساعدة الأيتام
جمعية الشباب المسلم العالمية	السعودية	1990	التعليم والإغاثة
المنتدى الإسلامي	المملكة المتحدة السعودية	1997	بناء المساجد، وحفر الآبار، التعليم والإغاثة
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية	ليبيا	1998	التعليم، بناء المساجد، بناء وإدارة المستشفيات
لجنة الأمير سلطان بن عبد العزيز للإغاثة	السعودية	2000	الإغاثة، القوافل الطبية
مؤسسة مكة المكرمة	السعودية	2002	التعليم، مساعدة الأيتام، بناء المساجد
الحرمين	السعودية	2002	الإغاثة،بناء المساجد، حفر الآبار، والتعليم
مؤسسة البر الخيرية العالمية	السودان	2002	الصحة، الخدمات الاجتماعية، التعليم والإغاثة

يوضح الجدول أيضًا أن المنظمات الإسلامية غير الحكومية قدمت إلى تشاد في دفعتين: الأولى في منتصف الثمانينيات مع موجات الجفاف المدمرة، ووصول حسين هبري للسلطة. وشهدت نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات مولد أولى المنظمات غير الحكومية الإسلامية الدولية، مع بداية الحرب في أفغانستان، ويسّر تمويلها الازدهار النفطي في البلدان العربية (غندور ٢٠٠٢). وفي الأعوام التالية، بدأت هذه المنظمات العمل، في أجزاء أخرى، من آسيا وفي افريقيا. وقد بدأت الوكالة الإسلامية الدولية للإغاثة، إحدى أولى المنظمات السعودية غير الحكومية (أسستها الحكومة السعودية في عام ١٩٧٨)، عملها في أفريقيا في بداية الثمانينيات، بينما يرجع وصول منظمة الدعوة الاسلامية السودانية، والوكالة الأفريقية الإسلامية للإغاثة إلى تشاد، للسياسة الخارجية السودانية، التي كانت تهدف إلى نشر الثقافة العربية الإسلامية في أفريقيا (جراندن ١٩٩٣). ولم تكن منظمة الدعوة آنذاك أداة سودانية فحسب، بل كان تمويلها يأتي – إلى حد كبير – من معمر القذافي، وتتلقى مبالغ متزايدة من السعوديين، الذين كانوا يخشون أن يستخدم القذافي المنظمة لزيادة نفوذ ليبيا في تشاد، وحاولوا لذلك أن يقهروا ليبيا مالياً (بنثال وبيليون–چوردان ٢٠٠٣، ١٥).

أما الموجة الثانية فقد بدأت في نهاية التسعينيات. ففي عام ١٩٩٣ أطلق مؤتمر وطني عُقد، في تشاد، البداية الرسمية للتحول الديمقراطي وإحلال السلام. مما قاد إلى استفتاء وانتخابات دستورية في عام ١٩٩٦–١٩٩٧[٣]. وفي إطار هذه البداية الجديدة، بدأت بعض الشخصيات القيادية اتصالات بدول الخليج؛ لاجتذاب المنظمات غير الحكومية الإسلامية، وعقدوا الاجتماعات والمؤتمرات التي تم فيها الحديث عن فقر تشاد، واحتياجها للدعم المادي والاجتماعي والثقافي، وأن "المنظمات المسيحية لا تنتظر عادة الدعوة للقدوم إلى تشاد، فلماذا تنتظرون أنتم مثل هذه الدعوة؟"[٤]. وكانت المملكة العربية السعودية قد شهدت، في أواخر التسعينيات، زيادة في عدد المنظمات غير الحكومية الجديدة، المستقلة عن المملكة السعودية (وإن كان يديرها في معظم الأحيان أعضاء من الصفوة السعودية). وقد بحثت هذه المنظمات عن قنوات لإنفاق مواردها؛ لذلك رحبت بالدعوة التشادية، بينما لم تصل جمعية الدعوة الإسلامية الليبية إلى تشاد، إلا بعد تسوية نزاع أوزو، وزيارة القذافي التاريخية للمصالحة إلى إنچمينا في عام ١٩٩٨ (حداد ٢٠٠٠).

المساعدات المادية

تركز المنظمات غير الحكومية أساسًا على تقديم العون الملموس كبناء المساجد وحفر الآبار، ومساعدة الأيتام، وتقديم خدمات الرعاية الصحية والتعليم. وعادة ما يصحب بناء المساجد حفر للآبار؛ لاحتياج المصلين لماء الوضوء قبل الصلاة، كما أن مساعدة الأيتام عمل يقع في صميم اهتمامات معظم المنظمات، من خلال تمويل الملاجئ (كما تفعل الهيئة الاسلامية للإغاثة). ورعاية الأيتام عمل متجذّر في الإسلام؛ إذ إن النبي محمد صلى الله عليه وسلم نفسه كان يتيماً، وتُبرز أحاديث نبوية عديدة فضل رعاية الأيتام.

أما في مجال الرعاية الصحية، فان عددًا من المنظمات غير الحكومية تشرف على مراكز صحية صغيرة في المدن، مثل: إنچمينا وأبشي وسار، كما تنظم الكثير من هذه المنظمات (بما في ذلك لجنة الأمير سلطان وهيئة مسلمي أفريقيا والمنتدى الإسلامي) قوافل صحية، تتكون من عدة أطباء وممرضات، وتتجول في أنحاء البلاد لتقديم خدماتها، وتخلق مثل هذه القوافل سمعة طيبة لرعاتها.

وفي مجال التعليم، شيدت المنظمات الإسلامية غير الحكومية المدارس (النظامية والقرآنية)، وتكفلت بتسييرها، كما قامت بدفع رواتب معلمي المدارس القائمة. وقد قامت هيئة مسلمي أفريقيا، مثلاً، بمقابلة تكلفة إنشاء إحدى عشرة مدرسة نظامية بها نحو ٢٧٦٤ تلميذاً، وتدفع رواتب ٢٨ مدرسًا، بالإضافة إلى بناء سبع مدارس قرآنية، بها ٤٥٠ طالبًا (هيئة مسلمي أفريقيا، ٢٠٠٢). كذلك تمول منظمة الدعوة الإسلامية المدارس في سار وأبشي لما مجموعه ٦٠٠ تلميذ، ومدرسة في إنچمينا بها ١٠٠٠ تلميذ. وتمول جمعية الدعوة الإسلامية العالمية الليبية مدرسة ثانوية بمكتبتها في إنچمينا إلى جانب مشاريع تعليمية أخرى. وتعتبر كل هذه المنظمات أن دراسة اللغة العربية، والتدريس بها، أمرًا بالغ الاهمية، واللغة العربية بالنسبة لها تمثل نمط حياة ورؤية، تستلهم الإسلام والثقافة العربية، وهي قيم همَّشها التعليم النظامي التشادي من وجهة نظرهم.

وتركز المنظمات، مثل: هيئة مسلمي أفريقيا، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية أنشطتها بصفة خاصة على التعليم، بينما تتعدد أنشطة الوكالة الإسلامية الأفريقية للإغاثة والحرمين. أما البر فهي أكثر المنظمات تخصصًا، فى تشاد، فهي تركّز بصفة واضحة على الرعاية الصحية، وأنشطتها الأخرى مرتبطة بهذا التركيز الأساسي، وتشمل: الخدمات الصحية والتوعية الصحية والإغاثة. وتستثمر بعض المنظمات (مثل: مكة المكرمة، وهيئة مسلمي أفريقيا، والمنتدى) بصفة أساسية في بناء مراكز إسلامية كبيرة، تحتوى على مسجد ومدرسة وملجأ للأيتام، ومركز للتدريب المهني، ومركز للمرأة...إلخ، وكلها خدمات متكاملة، بينما تموّل المنظمات الأخرى مثل الوكالة الإسلامية الأفريقية للإغاثة مشاريع صغيرة متفرقة.

وعمومًا، تغطي هذه المنظمات كل أرجاء تشاد، ما عدا أقصى الشمال، والذي يُحظر ارتياده على الأجانب؛ نسبة لوجود متمردين. ويبدو أن هناك نوعًا من تقسيم المهام بين هذه المنظمات، ففي الجنوب، مثلاً تعمل هيئة مسلمي أفريقيا في منطقة موندو، في حين يعمل المنتدى في منطقة سار، أما "الحرمين" فإنها تعمل بصفة أساسية في وسط تشاد (جويرا).

الأنشطة التبشيرية

نظرًا لأن المنظمات غير الحكومية الإسلامية – وليس مجرد المنظمات غير الحكومية – هى التي يديرها مسلمون، والتي كانت موضع هذه الدراسة لها أيضًا مهام تبشيرية، فإنها في خاتمة المطاف معنية بنشر الإسلام، سواء بإدخال أتباع جدد في الإسلام (الأسلمة). أو تعميق معرفة المسلمين الحاليين بدينهم، وتحسين ممارساتهم لشعائره (إعادة الأسلمة). ويتضح هذا الوجه الدعوي بجلاء في أعمال هذه المنظمات في حقل التعليم الديني والترويج للإسلام (ودعم معلمي القرآن، وتوزيع مواد تعليمية ...إلخ)، كما ينتظم – في حقيقة الامر – كافة أنشطتها الأخرى. وتورد مؤسسة "الحرمين" في موقعها الإلكتروني، مثلا، أنه ضمن أهم أهدافها، "الاستعداد لتقديم العون للمسلمين، ضحايا الكوارث والمصائب، ومساعدتهم بالمواد اللازمة لهم؛ لتثبيت الإيمان في قلوبهم، وغرس المعرفة في صدورهم بإذن الله تعالى".

وتُوَجّه أنشطة التبشير للمسلمين، الذين ترى المنظمة أن معرفتهم بالإسلام محدودة في جنوب تشاد، وهو في الغالب مسيحي أو وثني. كما أنها موجهة أساسًا لغير المسلمين، وقد أقامت المنظمات، مثل: مؤسسة مكة المكرمة، وهيئة مسلمي أفريقيا، والمنتدى الإسلامي مراكز للمؤلفة قلوبهم، ويُرسل رجال الدعوة إلى القرى؛ لإحضار من يبدي الرغبة في دخول الإسلام إلى هذه المراكز، حيث يمضون فيها مدة تتراوح من شهر إلى تسعة أشهر للدراسة، ويتكفل المركز بإطعامهم وإقامتهم، ثم يعودون إلى قراهم لنشر الدعوة. وهناك استراتيجية أخرى للأسلمة، وهي الاهتمام بمراكز السلطة مثل *رؤساء المناطق (كانتون)*، على أساس أن أسلمة هؤلاء تقود إلى أسلمة أسرهم ومواطنيهم. وقد يعطى مثل هؤلاء القادة في بعض الأحيان الهدايا أو المال، أو تذكرة سفر إلى مكة، أو مشروع للمنطقة. وقد أخذت هيئة مسلمي أفريقيا، رئيس منطقة دنيا إلى مكة، ثم الى الكويت؛ حيث قابل أميرها وحصل منه على مركز، به مسجد ومدرسة وعيادة صغيرة لمنطقته. ويشمل التقرير السنوي للهيئة لعام ٢٠٠١ تكلفة حج سبعة أشخاص إلى مكة (هيئة مسلمي أفريقيا، ٢٠٠٢).

غير أنه من المهم الإشارة إلى أن الأسلمة عملية معقدة، لا يمكن نسبتها إلى جهود منظمة واحدة. وإذا نظرنا في وضع قرية في جنوب تشاد؛ حيث أخبرتُ بأن رئيس القرية قد اعتنق الإسلام مؤخرًا، هو وعدد كبير من سكان القرية. بدا لي عندما زرت القرية أن ما حدث لم يكن بغتة، بل كان نتاجًا لعملية مركبة، أسهم فيها التجار المسلمون القادمون من الشمال، والذين أقاموا بالقرية لسنوات خلت، ورئيس قرية مجاورة أمضى بعض الوقت في نيجيريا، حيث اعتنق الإسلام، قبل أن يعود إلى قريته، وجهود الدعاة في المسجد الكبير بمونذو، وجهود المبشرين من هيئة مسلمي أفريقيا، والتي دفعت عددًا من الأشخاص إلى اعتناق الإسلام في السنوات الماضية. ومن المهم كذلك ارتباط صورة الإسلام في أذهان الناس بالسلطة؛ ذلك أن معظم كبار الإداريين المحليين وضباط الجيش كانوا من المسلمين.

وحين سألتُ المتخصصين في الدين، والعاملين بالمنظمات غير الحكومية، عمّا إذا كان هناك اختلاف بين المنظمات العديدة، اتفقوا على أن رسالة كل هذه

المنظمات متشابهة، وبدا هذا التوافق أيضًا في أن المنظمات السعودية والكويتية والسودانية تستخدم الأدوات التعليمية والترويجية لبعضها البعض؛ فالكتيب الذي صدر من هيئة الشباب المسلم العالمية يمكن أن نجده في مراكز هيئة مسلمي أفريقيا، وكتيبات الهيئة، يستخدمها مركز للمؤلفة قلوبهم، تديره مؤسسة مكة المكرمة. ويبدو أن المنظمة الليبية تعمل في معزل عن بقية هذه المنظمات، وهو أمر متوقع؛ لأن القذافي يزعم أن إسلامه المتأثر بنهجه "الاشتراكي" يختلف عن الفكر الوهابي التجديدي للمنظمات الإسلامية الأخرى (ماتس ١٩٩٣). ويمكننا القول بأن الفكر الإسلامي الذي تروّج له الدولة السودانية، والمتأثر بفكر الإخوان المسلمين (بنافلا ٢٠٠٠؛ وغندور ٢٠٠٢) يختلف عن الفكر السائد في السعودية، ولكن مادامت منظمة الدعوة الاسلامية تتلقى الدعم من بلدان الخليج، فإن توجهها لا يختلف كثيرًا عن توجه المنظمات السعودية، كما أن المنظمات العربية الأخرى تعتبرها جزءًا من مجتمع المنظمات غير الحكومية، ويتبادل مديرها الزيارات مع رصفائه.

وعلى الصعيد النظري، يتعارض التوجه الوهابي للمنظمات غير الحكومية العربية عن التوجه التيجاني الصوفي، السائد في تشاد. ويعتبر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، أعلى سلطة إسلامية في تشاد، ويسيطر عليه أتباع الطريقة التيجانية. فهو ينظر، من ناحية، في توجس إلى هؤلاء اللاعبين الجدد في الميدان، ويتعاون – من ناحية أخرى – مع هذه المنظمات الإسلامية في بناء وتسيير المساجد[٦] أما مديرو هذه المنظمات، فهم على استعداد للتعاون مع المجلس. وفي الواقع، تتسم علاقة المجلس بالمنظمات بنوع من البراجماتية، أكبر قدرًا؛ ممّا يتوقع علمًا بمواقفهما الأيديولوجية المتباينة[٧].

ويعتمد مدى إبراز الجانب الإنساني أو الدعوي ليس فقط على المنظمات، بل أيضًا على الجمهور والظروف السائدة. وبالنسبة لباحثين غربيين من أمثالي، ربما تميل المنظمات غير الحكومية إلى إبراز الجانب الإنساني في عملها[٨]، بينما يبرز الجانب الإسلامي التبشيري أكثر، حين تخاطب مموليها في المملكة العربية السعودية. وينطبق الوضع نفسه على المحافل التي تشارك فيها؛ إذ يُشارك عدد من هذه المنظمات، مثل: هيئة الإغاثة الإسلامية، وهيئة الشباب المسلم العالمية، وهيئة

مسلمي أفريقيا، في الملتقيات الإنسانية (مثل: تجمع المنظمات غير الحكومية بالأمم المتحدة، واليونسيف)، وفي المحافل الإسلامية (مثل رابطة العالم الإسلامي).

أما المنظمة السودانية، فلها طريقة فريدة في التعامل مع هذه الهوية المزدوجة؛ فقد تكونت منظمة الدعوة الإسلامية في عام ١٩٨٠، وظلت تعمل في الجانب *الدعوي* التبشيري، ولكنها أسست الوكالة الإسلامية الأفريقية للإغاثة كفرعها المختص بالإنسانيات. وقد أصبحت الوكالة لاحقاً منظمة مستقلة بذاتها لأسباب مختلفة (انظر بيليون-چوردان ١٩٩٧). وتوزيع الأعباء هذا بيّن اليوم؛ فمنظمة الدعوة الإسلامية مازالت تحافظ على توجهها "الإسلامي"، في حين تقدم الوكالة نفسها كمنظمة إنسانية بحتة، وتحاول الحصول على الموارد من مصادر غير إسلامية (ولا يحتوي اسمها على إشارة للإسلام).

كيف تموّل هذه الأنشطة؟

لم تكن كل المنظمات ترغب في تبادل تفاصيل ميزانياتها معي، ونستطيع - رغم ذلك - في ضوء ما يتوافر من بيانات أن نخلص إلى أن ميزانيات المنظمات غير الحكومية، التي تمت دراستها، تتروح بين ٣٠,٠٠٠ إلى ١,١٢٥,٠٠٠ دولار أمريكي في العام. وتتلقى هذه المنظمات تمويلاً من مصادر شتى. وفي الحد الأقصى، يتوجب على الوكالة الإسلامية الأفريقية للإغاثة أن تبحث عن التمويل لكل مشروع جديد، تبدأه؛ مما يجعل عملها من الصعوبة بمكان. وفي المقابل، تتلقى اللجنة الخاصة للأمير سلطان بن عبد العزيز للإغاثة تمويلها كاملاً من الأمير نفسه؛ مما يضمن لها توافر الموارد على نحو دائم. ولكن معظم هذه المنظمات تعتمد على مصادر متنوعة للتمويل؛ فجمعية الشباب المسلم، مثلاً، تتلقى نصف تمويلها من الحكومة السعودية، وتتلقى النصف الآخر من هبات شخصية ومؤسسية. أما هيئة مسلمي أفريقيا، فتعتمد على التمويل من الأفراد والمؤسسات (خاصة ورسمية)، وعلى ريع استثماراتها. وتمويل منظمة البر هو الأكثر تنوعًا، فهي تتلقى المنح الحكومية والخاصة ومساهمات أعضائها واستثماراتها في حقل الرعاية الصحية، وكذلك من مدارسها وشركاتها الخاصة، ولها مكاتب تجمع التبرعات في سويسرا وهولندا والمملكة المتحدة. ومن الملفت

للانتباه أنها أسست مراكز طبية متخصصة للموسرين في اليمن والسودان، تمول من أرباحها مراكز صحية مجتمعية في المناطق الفقيرة، كتشاد مثلاً.[٩]

ويرتكز تمويل المنظمات غير الحكومية أساسًا على مفهوم التضامن والتكافل الإسلامي، الذي تطرقنا إليه في المقدمة. ويتمثل الجانب المالي لهذا التضامن والتكافل في *"الزكاة"* و *"الصدقة"*؛ *والزكاة* هي تصدق إجباري وواجب ديني[١٠]، بينما *الصدقة* مساهمة طوعية. والزكاة هي نوع من "العبادة المالية" وتمثل وجها للتضامن الاجتماعي وتؤكد الإلتزام الديني (بنثال وبييون –جوردا ٢٠٠٣، ٢٦).

ويحدد القرآن مصارف الزكاة التي هي أولاً للفقراء والمساكين، ثم أولي القربى، والمؤلفة قلوبهم، والغارمين، وأبناء السبيل، والمجاهدين في سبيل الله (انظر أيضًا بنثال وبيليون –چوردان ٢٠٣، ١٠). وتُخرج *الزكاة* تقليديًا لمساعدة المحتاجين في مجتمع المُزكي (المحلي أو القطري)، غير أن ذلك المعنى اتسع تدريجيًا ليصبح "المجتمع" هو *"الأمة"* الإسلامية بكاملها. وقد ترسّخ هذا الفهم، عندما بدأ المسلمون في البلدان الغنية – كالسعودية والمملكة المتحدة – يحسون أن الفقر الحقيقي لا يوجد في مجتمعاتهم، أو أنه يوجد بطريقة محدودة، في وقت كانت فيه وسائل الإعلام تكشف الفقر والكوارث في أنحاء متفرقة في العالم. ويدور الجدل أحيانًا ما إذا كانت الزكاة مقتصرة على فقراء المسلمين فقط، أم للفقراء من غير المسلمين أيضًا. ولكن إذا اتسع مفهوم الزكاة ليشمل ليس المسلمين فحسب، بل أيضًا أولئك، الذين يمكن أن يعتنقوا الإسلام (المؤلفة قلوبهم)؛ إذ إن مساعدة غير المسلمين تصبح أمرًا واردًا ومحبّذاً. وهذا يعني أن *"الدعوة"* تظل مكوّناً مهمًّا في استراتيجيات المنظمات الإسلامية غير الحكومية.

المساعدات و"الأمة" والسياسة

إن العون *"الأمة"*، أي الجانب الإنساني والواجب الديني، صنوان يكونّان جزءًا من هوية منظمات الإغاثة الإسلامية الدولية. ومفهوم العون متجذر في فكرة التكافل الإسلامي، ولكنه أيضًا يقرب (مزيدًا) من الناس إلى خالقهم – بتلقي العون وتقديمه. أما *"الأمة"*، فهي مفهوم أخلاقي في المقام الأول، يُعرّف

مجموعة الناس الذين يطيعون الله، هذا بالإضافة إلى أن لها معنى مكانياً لأن هنالك فرقًا بين *"دار الإسلام"* التى تشير إلى بلدان المسلمين و*"دار الحرب"* وهي البلاد التي لا يسود فيها الإسلام، وبين هذين المفهومين توجد منطقة تدعى *"دار الصُلح"* وهي البلدان غير المسلمة التي لا تعادي الإسلام، وحيث يمكن *"للامة"* أن تتوسع، وتقع "دار الصُلح" عادة في أفريقيا (غندور ٢٠٠٢). ومن ناحية عامة، يُعتقد أن من واجب المسلم المساهمة في توسيع رقعة "الأمة"، ويتبع من ذلك أن هذا التوسع قد يُفسر على أساس "أخلاقي" أو "طبيعي".. وكما في حالات التوسع، فإن هنالك عواقب سياسية؛ إذ يعني ذلك التنافس على الإنسان، وعلى الأرض.

وفي تشاد، يبدو أن المنظمات الإسلامية تعتبر المنظمات المسيحية منافسها الرئيسي، فهي – كما يعتقد المسلمون – التي تحاول إبعاد الناس عن الإسلام، وتستخدم وسائل شرسة للتبشير لاكتساب الأتباع. ومن المنظور الدولي، يعتبر مديرو المنظمات غير الحكومية الإسلامية الأمريكيين، والرئيس بوش تحديدًا وبشكل أكثر دقة – عدوّهم الألد؛ فالافكار والسياسات الأمريكية هي التي وصمت الإسلام عموماً، والمنظمات الإسلامية على وجه الخصوص، بالإرهاب وهي التي تعرقل أعمالها.. كل ذلك على خلفية الصراع الإسرائيلي– الفلسطيني، الذي تلعب فيه الولايات المتحدة دورًا بارزًا، وغزو العراق. ومن الملاحظ أن مديري المنظمات لم يشيروا إلى الولايات المتحدة في إطار استغلال النفط (كما توقعتُ قبل بداية بحثي)؛ ربما لأن التنافس على النفط اعتبر منافسة بين الامريكيين والفرنسيين، أكثر منه محاولة لزيادة الهيمنة الامريكية على حساب نفوذ العرب والمسلمين.

وسأحاول فيما يلي أن أسهب في شرح هذين المجالين للعداوة والتنافس. وعلى الصعيد الوطني، سأركز على التنافس بين المنظمات غير الحكومية الإسلامية والمسيحية (وسنرى أن المنظمات المسيحية، هي الأخرى، لها الأفكار نفسها والتحامل نفسه على المنظمات الإسلامية). وعلى الصعيد العالمي، سأركز

على الاتهامات الأمريكية بأن المنظمات غير الحكومية الإسلامية تدعم الإرهاب.

الإسلام السياسي في مواجهة المنظمات غير الحكومية المسيحية

يمثل الجنوب التشادي – أكثر من أي جزء آخر من البلاد – مسرحًا للتنافس بين المنظمات غير الحكومية الإسلامية والمسيحية. وقد كانت المنطقة فيما مضى "وثنية" ومسيحية في غالبها، غير أن النفوذ المسلم تصاعد منذ الثمانينيات؛ بفضل هجرة التجار وأصحاب المواشي من الأجزاء الشمالية إلى تشاد؛ هربًا من الجفاف والحرب، ولأن الشماليين سيطروا تدريجيًّا على الوظائف في الإدارة والجيش، حين آلت السلطة إليهم. ويذكر جيرود ماجرن، في دراسته المتعمقة عن التغيرات في جنوب تشاد في العقود الأخيرة، أن المنافسة بين المنظمات غير الحكومية الإسلامية والمسيحية لم تأخذ الشكل العدائي العنيف، الذي اتخذته في السودان.. ولكنه رغم ذلك يتسم بالحدة؛ نتيجة لازدياد عدد المسلمين في الجنوب، وتأثير الحركات التي تنادي باتباع ممارسات إسلامية أكثر التزامًا (٣٤٤، ٢٠٠١). وأود هنا أن أشدد على حقيقة أن تسييس الدين من جانب السياسيين الشماليين والجنوبيين، على حد سواء، قد أسهم في زيادة التوتر.

والمنظمات غير الحكومية الإسلامية والمسيحية، هي جهات فاعلة في الميدان، تشعر عمومًا بأنها تدافع عن قضية، ويتهم كل طرف الآخر بأنه يستخدم العون لاكتساب أتباع جدد لدينه (بنثال وبيليون–چوردان ٢٠٠٣)، كما يتهم كل طرف الآخر بأن له أهدافًا سياسية خفية، أو أنه أداة في يد دول أو تكتلات دولية. وعلى سبيل المثال، اتهم أحد مديري المنظمات الإسلامية "وورلد فيشن" المنظمة المسيحية، بأن لها نشاطًا سياسيًّا في مدينة، تعمل فيها المنظمتان. كذلك وصف أحد موظفي منظمة أمريكية بروتستانتية المنظمات الإسلامية الدولية بأنها أدوات في مخطط كبير للحكومة السعودية؛ لأن تشاد بلد استراتيجي، غير أن المنظمات المسيحية (والمسيحيين في تشاد عمومًا) يرون "الخطر الإسلامي" آتيًا من السودان، ويخشون من أن تأثير هذا البلد المجاور

سيحيل تشاد إلى دولة إسلامية أيضًا، وسيتحمل المسيحيون في تشاد العواقب نفسها، التي يتحملها المسيحيون في السودان. كذلك، تشكك المنظمات المسيحية أن نظيراتها الإسلامية تتلقى معاملة تفضيلية، من جانب الحكومة التشادية. ومن بين كل العاملين بالمنظمات الإسلامية والمسيحية الذين التقيتهم، لم أجد بينهم من ينظر نظرة نقدية إلى ما يفعله هو نفسه، إلا راهبة من بعثة كاثوليكية، بالقرب من بونجور، تعمل في الميدان، قالت لي: "كل طرف يحاول أن يجتذب المواطنين عن طريق الهدايا، ونحن أيضًا نحاول أن نفعل ذلك عن طريق تقديم الرعاية الصحية".

ولابد أن نضع، في الحسبان، أن المنظمات المسيحية قد تعمل بالتبشير مثلما تفعل المنظمات الإسلامية، و"تَجمّع الكنائس والبعثات التبشيرية في تشاد"، مثلاً، والجمعية الوطنية للكنائس البروتستانتية، تذكر التبشير بوضوح كأحد أهدافها، جنبًا إلى جنب مع تجويد الممارسات الدينية، ومحاربة "الأفكار الخاطئة" في المجتمع، والدفاع عن مصالح أتباعها لدى الدولة...إلخ. وتذكر التبشير بوضوح في وثيقة، تصف مهمتها، فهدف الجمعية هو: "جعل كل الشعب التشادي من أتباع المسيح" (إيميت ٢٠٠٣). وهذه الأهداف الثلاثة – تعليم المجتمع وتنصير الآخرين والدفاع عن مصالح المجموعة، هي عمومًا الأهداف نفسها، التي تسعى إليها معظم المنظمات الإسلامية.

والمواجهات بين المنظمات المسيحية والإسلامية لا تكاد تُذكر، إلا أن المجموعات المستهدفة بأنشطتها تشعر، رغم ذلك، بالتوتر بينهما، كما يوضح المثال التالي:

قابلتُ في قرية صغيرة في جنوب تشاد، قسيسًا سابقًا اعتنق الإسلام مؤخرًا. وكان يجمع التبرعات للكنيسة كل يوم أحد، ولكنه لم يشعر يومًا بأن الكنيسة قد قدمت له، أو لمجتمعه، أي شيء. وقد ذكر لي بعاطفة جياشة أنه رأى النور، حين قرأ كتيبًا صغيرًا بعنوان *"الطريق إلى الإسلام"* أعطاه إياه بعض الأشخاص، الذين وفدوا إلى القرية كمبشرين. وقد ذهب إلى المسجد، في قرية أخرى، قرب الطريق الرئيسي، وذكر لهم أنه يريد اعتناق الإسلام، غير أنهم نصحوه بأن

يفكر مليًّا، وطلبوا منه مغادرة المسجد – وبعد خمسة أيام عاد، وأعلن أنه قد اتخذ قراره، وحينها رحبوا به بحرارة. وبعد أيام من ذلك تبعه عشرة رجال وأسرهم، غير أن راهبة من الأبرشية حضرت إلى القرية، وأخبرتهم بأن الشيطان هو الذي قادهم إلى الإسلام، وأنهم لا يجب أن يستمعوا له، فأخبروها بأنهم لم يعتنقوا الإسلام من أجل المال أو أي غرض آخر. وحينما رأت الراهبة أنها لن تستطيع إقناعهم، تركت القرية. ولكن القس السابق يذكر، بمرارة، أن الكنيسة تُشيع في كل الأبرشية أنه تجسيد للشيطان، ويبدو أن ذلك يؤلمه كثيرًا، كما لاحظت. غير أن ما يؤلم أكثر هو أن القس السابق أرسل خطابًا إلى المنظمة الإسلامية، التي كان لها صلة مباشرة أو غير مباشرة باعتناقه الإسلام، يطلب بناء مسجد، ولم يحصل قط على إجابة، ويبدو لي أنه عُومل بالطريقة نفسها من الجهتين.

يشترك المثقفون المسيحيون، في تشاد، في موقفهم تجاه المنظمات غير الحكومية الإسلامية، وتشكل الآراء السياسية التي أوردناها في بداية هذا القسم جزءًا من ذلك الموقف، وهم أيضًا يتهمون الإسلام "بالمحاكاة": "حين نبني مدرسة يبنون مدرسة أيضًا، وحين نبني ملجأً للأيتام، يبنون ملجأً أيضًا"، والفكرة مؤداها أن المنظمات الإسلامية تعتمد عمومًا على رد الفعل، لما تقوم به المنظمات المسيحية/ الغربية، ونراها بوضوح في الكتابات ذات الصلة (كودري ١٩٩٢). ويرتكب بنثال وبيليون –چوردان الخطأ نفسه، أحياناً حينما يذكران أن تأسيس المنظمات غير الحكومية الإسلامية هو رد فعل لوجود المنظمات الغربية، أو أن اتجاهها إلى الحرفية، ما هو إلا تقليد لما يحدث في المنظمات المسيحية/ الغربية. غير أن معظم هذه التطورات، يمكن إرجاعها إلى أفكار وتطورات في الإسلام نفسه، أو في التطورات الداخلية في هذه المنظمات. وقد يبدو أن بناء ملجأ بانچمينا – بواسطة وكالة الإغاثة الإسلامية – هو تقليد للملجأ المسيحي، الموجود من قبل، ولكننا رأينا أن رعاية الأيتام أمر مهم في الإسلام، وقد يكون بناء الملجأ نتيجة لهذه الأهمية؛ مثلما قد يكون نتيجة للرغبة في منافسة المبادرة المسيحية.. كذلك لا يمكن معاملة التوجه المتزايد للمنظمات الإسلامية، نحو العمل الإنساني، كما أورد بنثال وبيليون–چوردان، على أساس

أنه فقط؛ نتيجة للرغبة في التشبه بالمنظمات المسيحية، والتوجه نحو "الحرفية" تطور ملاحظ في عالم المنظمات غير الحكومية عمومًا منذ التسعينيات، وربما كانت المنظمات المسيحية والإسلامية تسير في خط متواز في هذا الاتجاه، وقد تتأثر المنظمات ببعضها البعض، ولكن لا يمكن اختصار كل التطورات في المنظمات الإسلامية، في أنها مجرد "محاكاة".

ومن ناحية عامة، نجد أن المنظمات الكاثوليكية أكثر استعدادًا للتعاون مع نظيراتها الاسلامية من المنظمات البروتستانتية.. كذلك نجد أن العاملين، في أيٍّ من هذه المنظمات أكثر براجماتية وانفتاحًا، مما يُتوقع، إذا نظرنا الى التوجه الفكري لمنظماتهم، أو إلى العلاقات المتوترة بين الطوائف المختلفة في تشاد،(١١) وقد تتعاون لجنة الأمير سلطان بن عبد العزيز، مثلاً، مع قساوسة لتوزيع موادها، ومدير جمعية الشباب المسلم العالمية عضو في مجموعة دولية للحوار الإسلامي–المسيحي.. كذلك قامت منظمة كاثوليكية بمساعدة منظمة إسلامية، في أحد معسكرات اللاجئين، في توزيع اللحوم خلال عيد الفطر.(١٢)

ويبدو أن الانفتاح على الآخر أسهل للمسلمين، أكثر منه للمسيحيين. كما أن إحساس المسيحيين بأنهم أقلية قد يقودهم إلى موقف "دفاعي"، كما يتضح في الأمثلة التالية: عبّر أحد مديري المنظمات الإسلامية لنظيره المسيحي عن انفتاحه، وأنه يعتقد أن المنافسة بينهما أمر سيئ. وفي المقابل، اعتقد أحد المديريين المسيحيين بأن هذه المنافسة ليست "مُسلية" أو طبيعية، بل إنها تهديد حقيقي. كذلك نُظمت ندوة بعنوان: "كيف نرد على اعتراضات المسلمين على الدين المسيحي"؛ لتمكين أعضائها من الدفاع عن أنفسهم. وقد اشتمل الكتيب الذي صاحب الندوة على معلومات عن الإسلام، وأيضًا الردود المناسبة على اعتراضات المسلمين (حول فكرة الثالوث الإلهي، وكون المسيح ابن الله.....إلخ)، وانتهى الكتيب بالسؤال: من سيكسب المعركة؟ والجواب الذي يقول إن المسيحية ستفوز فقط في حالة مشاركة كل المسيحيين. ودون ذلك، ستكون النتيجة مغايرة: سيصبح كل المسيحيين مسلمين (الحق ٢٠٠٤).

ورغم أن المسيحيين هم العنصر الغالب في تشاد؛ نتيجة للوضع السياسي، وأن المسلمين هم أغلبية السكان (كودري ١٩٩٢)، إلا أن الوضع على الصعيد الدولي معكوس. وبعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١، وجد المسلمون نفسهم في قفص الاتهام. وفي القسم التالي، سنرى كيف يؤثر ذلك الوضع على المنظمات غير الحكومية الإسلامية موضع البحث في هذه الدراسة.

السياسة: الاتهامات بالإرهاب

لا يمكن تفهم وضع المنظمات غير الحكومية الإسلامية الدولية على مستوى العالم، وفي تشاد، إلا بأخذ المناخ الدولي السائد في الحسبان؛ خاصة العداء المتزايد بين العالم الإسلامي والغرب، الذي استحكم بعد الإعلان عن "الحرب ضد الإرهاب". وتُتهم المنظمات الإسلامية أحيانًا – وبطريقة مباشرة بدعم المجموعات والأنشطة الإرهابية. أما الآثار الاخرى لهذا القرار، فهي غير مباشرة، وإن كانت تؤثر في الجو الذي تعمل فيه هذه المنظمات.

ولقد اتُهمت المنظمات الإسلامية بتشجيع ودعم الإرهاب منذ بداية التسعينيات في أفغانستان وفلسطين وباكستان والبوسنة، وفي غيرها (بنثال وبيليون–چوردان ٢٠٠٣). وبعد ١١ سبتمبر/أيلول، أصبحت هذه الاتهامات أكثر حدة، وأصبح لها أثر سياسي، بعد أن أصبحت جزءًا من "الحرب على الإرهاب" التي شنتها إدارة بوش. وفي هذا الإطار، تُتهم المنظمات بتقديم الدعم المالي والمادي واللوجستي لشبكة القاعدة والمنظمات مثل حماس. وقد ذكر مدير إحدى المنظمات الإسلامية الدولية العاملة، في تشاد، أن موظفي منظمته يُعاملون كأعداء من جانب الولايات المتحدة؛ لأنهم يتولون بالرعاية أيتام قتلى حماس، ويبنون المنازل في الأراضي الفلسطينية التي هدمها الجيش الإسرائيلي. (وقد أشار، وهو يذكر ذلك،أن دعمهم إنساني بحت، وأنهم لا يشاركون في المقاومة المسلحة). كذلك أكد كل العاملين بالمنظمات الإسلامية أن الإرهابيين ليسوا مسلمين صالحين، وأن الإسلام دين سلام.

وأحد الأسباب، التي تجعل من العسير، إصدار حكم بشأن هذه المنظمات، هو أنها دولية، فهي تستخدم استراتيجيات، تختلف باختلاف البلدان، ولها

أولويات مختلفة، وتواجه ظروفًا محلية متباينة وتستعين بموظفين مختلفين. كما أن الاتهامات الموجهة لأحد فروع هذه المنظمات، قد لا تنطبق على فرع آخر، في بلد آخر أو في قارة أخرى. وحتى عام ٢٠٠٢، كانت السياسة الأمريكية تأخذ هذه الاختلافات في الحسبان؛ فمنظمة الحرمين، مثلاً، حُظرت في بلدان قليلة كالصومال والبوسنة. ولكن سياسة الولايات المتحدة أصبحت مؤخرًا أقل تمييزًا وأكثر كبتًا، وأصبحت منظمات إسلامية بكاملها هدفاً للإجراءات المضادة للإرهاب.

وهكذا، حينما كنتُ في تشاد في ربيع عام ٢٠٠٤، أجبر فرع منظمة الحرمين في تشاد على إغلاق مكاتبه هناك؛ لأن وزارة الشؤون الإنسانية السعودية أوقفت المنظمة تحت ضغوط الولايات المتحدة. ولم تواجه المنظمات الأخرى مثل هذه الإجراءات القاسية، إلا أن بعضاً منها تأثر أيضًا بهذه المعاملة؛ فجمعية الشباب المسلم الدولية، مثلاً، فقدت جزءًا من ميزانيتها؛ نتيجة للضغوط الأمريكية على الحكومة السعودية، وبينما لا تزال المنظمة تتلقى الدعم من الحكومة السعودية، فإنه لا يُسمح للمانحين من الخواص بتقديم التبرعات لها. وحين عدتُ إلى تشاد في ربيع عام ٢٠٠٤، كانت كل المنظمات السعودية قد وُضعت تحت المراقبة، وجُمدت أرصدتها لحين اكتمال التحقيق. ونتيجة لهذه الإجراءات، وللضغوط الأمريكية، أوقفت لجنة الأمير سلطان بن عبد العزيز أنشطتها، وكانت تستعد لمغادرة تشاد، وقد ذكر لي مديرها أن كل العاملين في أفريقيا، طُلب منهم العودة إلى المملكة العربية السعودية، وأن كل منظمات الإغاثة السعودية قد تُحل، وتُدمج أنشطتها في منظمة دولية واحدة، تسيطر عليها الحكومة السعودية وتراقبها (أنظر أيضًا *ميدل ايست أونلاين* ٢٠٠٤).

ولكن المنظمات السعودية الأخرى، التي تحدثت معها لم تكن مقتنعة بأن هذا سيحدث، وأنهم ينتظرون نتائج التحقيق. ويبدو أن السلطات الأمريكية والسعودية – على حد سواء – كانتا تريدان توثيق تدفق التبرعات من الأفراد إلى منظمات، لا تخضع لسيطرة السلطات. وحقيقة أن الأمير سلطان، وهو في الوقت نفسه وزير الدفاع والطيران، قد تفسر لماذا كانت منظمته أول المنفذين

لهذه السياسة الجديدة. وقد ذكر مدير هيئة مسلمي أفريقيا أن منظمته كانت تخضع أساسًا للمراقبة اللصيقة من جانب السلطات الكويتية لذلك لم تؤثر الضغوط الامريكية على أنشطتها.

ليس من اليسير على باحث مثلى، أن يحكم بصحة الاتهامات بدعم الإرهاب، ولكن من المؤكد أن حل المنظمات الإسلامية ستكون له آثار مباشرة في تشاد؛ إذ ستقفل المدارس، ولن يستمر دعم الأيتام.. وحتى إذا لم يتحقق هذا السيناريو، فإن "الحرب على الإرهاب" سيكون لها أثرها؛ إذ يشتكي معظم مديري هذه المنظمات من أنهم يُعاملون بالريبة والتشكك، في أوساط المنظمات الإنسانية الدولية؛ مما يؤثر سلباً على عملهم.

وعلى المستوى القطري، كان "للحرب على الإرهاب" تأثير على ظروف عمل المنظمات الإسلامية. ومن ناحية أخرى، هناك "مبادرة عموم السهل"، التي تقدم الولايات المتحدة – بموجبها – السلاح والتدريب للجيش التشادي؛ ليتمكن من محاربة الأنشطة الإرهابية. وستزيد هذه المبادرة، في الغالب، نفوذ الولايات المتحدة في تشاد، ويعتقد بعض مديري المنظمات الإسلامية أن ذلك سيجعل العمل في تشاد أكثر صعوبةً. ورغم أن الحكومة التشادية لها مواقف إيجابية، تجاه المنظمات العربية، إلا أن النفوذ الأمريكي يجعل علاقتها بهذه المنظمات أكثر تعقيدًا، وقد يحدث هذا على وجه الخصوص؛ لأن القيادات التشادية تستفيد ماديًا من المبادرة الأمريكية، ومن أنشطة المنظمات غير الحكومية الإسلامية.[١٣] بالإضافة إلى ذلك، ربما تأثر برنامج مكافحة الإرهاب الأمريكي، بوجود احتياطيات كبيرة للنفط في تشاد (دي فولكسكرانت ٢٠٠٤)؛ مما يثير اهتمام السلطات الأمريكية والتشادية معًا. ومن ناحية أخرى، يذكر المراقبون أن الوضع الدولي الحالي قد غذّى شعورًا بالعداء للغرب وللمسيحية، لدى المسلمين، لم يكن موجودًا من قبل (المونا ٢٠٠٤). وكل هذه العوامل ستؤثر على أنشطة المنظمات غير الحكومية الإسلامية الدولية، في تشاد، في المستقبل القريب، وربما أصبحت تدخلاتها المادية والمعنوية أكثر نسبيًا عن ذي قبل.

خاتمة

حاولتُ في هذا الفصل استكشاف طبيعة ووسائل وتأثير المنظمات غير الحكومية الإسلامية في تشاد. وتجئ طبيعتها الدولية من مصادر تمويلها، ومجال عملها الجغرافي، وتكوين العاملين بها، وأهدافها، التي ترتبط في غالب الاحيان *"بالأمة"*؛ مما يعنى أنه من التبسيط المُخل اعتبار أنشطة هذه المنظمات مجرد محاكاة لنظيراتها الغربية، ونسيان أنها منظمات إسلامية أساساً. وقد ذكرتُ من قبل أن إنشاء ملجأ للأيتام في انجمينا قد يعتبر مجرد محاولة لمجاراة مبادرة مسيحية مماثلة، وقد يعتبر أيضًا انعكاسًا للأهمية التي يوليها الإسلام لرعاية الأيتام. وتختلف المنظمات العربية أساسًا في أساليب عملها (لبعضها مراكز كبيرة مسيطرة، وللبعض الآخر مشاريع صغيرة متفرقة)، وفي التوازن بين *"الدعوة"* و*"الإغاثة"* في عملها، وفي مصادر وحجم تمويلها (حكومية ام خاصة).

إن العون *"والأمة"* والعمل الإنساني والديني، كلها عوامل متشابكة في أنشطة هذه المنظمات، وهذا يعني أن هذه المنظمات يمكن اعتبارها جهات سياسية فاعلة، تستخدم المساعدات لتوسيع *"الأمة"* بمعنى ديني وجيو-سياسي في آنٍ معاً. وعلى الرغم من أنه على المستوى القطري، تكون المنافسة الدينية بين المنظمات الإسلامية والمسيحية الأكثر بروزًا، إلا أن كل طرف منها يتهم الآخر بالتدخل في السياسة. ولكن هذه المنافسة لا تمنع موظفي هذه المنظمات من التعاون من ناحية عملية، ويتم مثل هذا التعاون بالفعل، مثلاً، بين المنظمات الإسلامية والكاثوليكية.

أما على المستوى الدولي، فإن التوتر الجيو-سياسي أمر بارز؛ خاصة وأن المنظمات الإسلامية، التي اتهمتها الولايات المتحدة (وتبعتها دول أخرى) بمساندة الإرهاب، أصبحت هدفًا في "الحرب على الإرهاب". ولهذه الحرب العالمية تأثيرها على عمل هذه المنظمات في تشاد؛ إذ تشير البيانات أن "الحرب على الإرهاب" قد تُغيّر المشهد "الخيري" والسياسي في تشاد، مثلما ستفعل في بلدان أفريقية أخرى؛ لذلك لا يجب حصر تحليل هذه الآثار فقط على الساحة الدبلوماسية الدولية، أو على الوضع المحلي في أفغانستان والعراق.

من الصعب تحديد مدى تأثير المنظمات غير الحكومية الإسلامية الدولية على تشاد؛ بناءً على هذه الدراسة الأولية. وأول ما يمكن أن يُقال أن هذه المنظمات لها دور بارز؛ فهي تبني مراكز تعليمية كبرى، وعددًا من المساجد، أو ترفع – في الغالب – لافتة، تحمل اسمها أمام كل مشروع، كبيرًا كان أم صغيرًا. وهذا البروز قد لا يعني الكثير؛ ففي أنجمينا، قد نجد أن بعض هذه المراكز تعمل بسلاسة، إلا أننا في الأرياف قد نجد ان معظم المساجد، التي بُنيت لم تُفتتح قط، وأن المراكز متعددة المهام تفتقد الموظفين والتمويل. كذلك، من الصعب معرفة نتيجة جهودها التبشيرية، وفي رأيي أن حالات الأسلمة، التي نجحت فيها هذه المنظمات هي حالات "سطحية"، وتحتاج إلى عوامل إضافية لجعلها أسلمة راسخة، مثل: وجود مجموعة مسلمة مُرحّبة، أو فوائد سياسية أو اجتماعية يمكن للمسلم الحصول، أو الإرشاد والإشراف المستمر، من قِبل إمام أو أي سلطة إسلامية أخرى. وعليه، فإن هذه المنظمات – بمفردها – لها تأثير محدود، وتكمن أهميتها الحقيقية في كونها جزءًا من عملية أكثر اتساعًا للأسلمة والتعريب، والمنظمات العربية الإسلامية تُجسّد، وتسهم، في الوقت نفسه، في هذه العملية من خلال بروزها والوسائل الأخرى، كما تستفيد منها. ويكمن في هذا الأهمية السياسية لهذه المنظمات؛ إذ إنها تمثل، وتكون جزءًا من، ظاهرة كبرى، يحسبها البعض خطيرة، ويراها البعض الآخر مرغوبة.

ولابد من القيام بمزيد من البحث في تفاعل تدخلات المنظمات غير الحكومية الإسلامية في أفريقيا، وآمل أن أكون قد أوضحت – أولاً – أن الأسلوب الذي يجمع الجوانب المادية والمعنوية والسياسية، ويحلل الترابط بين العوامل الدولية والقطرية والمحلية هو أسلوب واحد، وثانيًا، أن اجتماع مختلف أشكال الإسلام، واجتماع الإسلام والمسلمين يجب أن يخضع للدراسة على الطبيعة؛ لمراقبة تفاعل الناس، وليس عن طريق مراجعة النظريات والأيديولوجيات فقط، فالواقع أكثر حركية، والناس أكثر براجماتية؛ مما قد تفترضه النظريات، التي يتبعونها. وفي الختام، أقترح أن تتم دراسة هذه المنظمات كجزء من دراسة أوسع لعملية الأسلمة والتعريب في تشاد، وفي أماكن أخرى في أفريقيا.

هوامش

أرجو أن أعبر عن تقديري للدعم المادي المقدم من "وترو" وڤانكويڤيردن أدريانى ستشتنق، وبرنامج "الإسلام في أفريقيا"، ومركز الدراسات الأفريقية، بالإضافة إلى شكري لبنچامين سواريس ومريام بروبين على ملاحظاتهم على المسودة الأولية لهذا الفصل.

١. تتضح حدة التنافس المسيحي الإسلامي في أفريقيا في أن توصيات هذا الاجتماع نُشرت في صحيفة الڤاتيكان بعد سنة.

٢. في ٢٠٠٥، كان هناك ٦٩ منظمة أجنبية مسجلة لدى وزارة التخطيط، ولكن ٤٢ منها فقط كانت عاملة، أي إنها كانت ترسل تقارير للوزارة (مقابلة في وزارة التخطيط، ادارة المنظمات غير الحكومية، أنچمينا، أبريل ٢٠٠٥).

٣. انظر بويتنهاوس ١٩٩٣ كرد شامل للمؤتمر والتفاعلات ذات الصلة، وبويتنهاوس ١٩٩٨ لعملية التحول الديموقراطي، التي تلت ذلك.

٤. مقابلة مع أحد الناشطين في أنچمينا، مايو ٢٠٠٤.

٥. موقع الحرمين الإلكتروني، ولكن لايمكن الوصول إليه الآن.

٦. غير أن المجلس لم يكن راضيًا عن أن هذه المنظمات تحت إشراف وزارة التخطيط، وعليه، فإن المجلس ليس له سيطرة عليها، "ويرى أن هذه غير مبررة لأن دور المجلس هو الإشراف على كل الأنشطة الإسلامية في البلاد (انظر أيضًا المونا ٢٠٠٤).

٧. ربما أسهم في هذا التوجه المنفتح أن عددًا من مديري هذه المنظمات أجانب، ولهم خبرة دولية كبيرة. ومدير مكة المكرمة مثلاً سعودي خدم في البوسنة، قبل أن يأتي إلى تشاد، ومدير هيئة مسلمي أفريقيا مغربي، عمل من قبل في بوركينا فاسو.

٨. لم يتطرقوا إلى مسألة *"الدعوة"* في حديثهم معي، وقد تحصلت على المعلومات عنهم من الميدان.

٩. يذكر غندور (٢٠٠٢، ١٤٤) أن هذه الاستراتيجية واحدة بين المنظمات الإسلامية.

١٠. *الزكاة* تُحدد باثنين ونصف بالمائة من ثروتك في السنة، وتحديد الممتلكات التي تجب عليها الزكاة يخضع للنقاش والفقه الإسلامي، والمسلمين الذين تكون ممتلكاتهم أقل من *نصاب* معين، يُعفون من إخراج *الزكاة*.

١١. كما أوضحت، هذا صحيح أيضًا بالنسبة للعلاقة بين المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، والمنظمات السعودية.

١٢. هذه المبادرات، على أية حال، ظرفية. وفي المحافل المنظمة، قلما تلتقي المنظمات المسيحية والإسلامية، ناهيك عن أن تتعاون، وملتقى المنظمات غير الحكومية في مونرو مثلاً يتكون فقط من المنظمات المسيحية والمنظمات الأخرى. ولم تُدع أي منظمة إسلامية لمؤتمر حول أطفال الشوارع نظمه برنامج الامم المتحدة الإنمائي في انچمينا.

١٣. أثار ممثل تشاد في الامم المتحدة – وهو السفير السابق لها فى الولايات المتحدة الأمريكية – في مقابلة في "الجزيرة" خطورة أن يستخدم رئيس تشاد العتاد والجنود المدربين لمصلحته الشخصية. انظر أيضًا نشرة *"أفريكا كونفدينشيال"* ٢٠٠٤، التي ذكرت أن الدعم العسكري الأمريكي للرئيس أدريس دبي أكثر تحت النفوذ الأمريكي. وقد ذكر تقرير صدر مؤخرًا عن مجموعة الأزمات الدولية، أنه رغم أن أهداف المبادرة طموحة، إلا أن "الأنشطة اليومية – غالباً – متواضعة" (٢٠٠٥، ٣٠).

obeikandl.com